العرب والوعي المستقبلي ..2 /2 سؤال 'المعرفة' في الواقع العربي الراهن ؟

11-1-2004

تبدو المعوقات السياسية لاكتساب المعرفة أشد وطأة من معوقات البنية الاجتماعية والاقتصادية؛ فالسلطة السياسية في العالم العربي تعمل على تدعيم النمط المعرفي الذي ينسجم مع توجهاتها وأهدافها ، وتحارب الأنماط المعرفية المعارضة ، ويشكل عدم الاستقرار السياسي واحتدام الصراع والتنافس على المناصب عائقا أساسيا أمام نمو المعرفة وتوطنها النهائي وترسخها في التربية العربية

بقلم محمد سليمان

مواد ذات علاقة

العرب والوعي المستقبلي ..1/2 سؤال 'المعرفة' في الواقع العربي الراهن ؟

شروط إنتاج المعرفة:

المعرفة لا تنمو في فراغ، بل تتأثر منظومة المعرفة بمحددات مجتمعية ثقافية واقتصادية وسياسية. ويتناول معدو التقرير هذه العوامل وأثارها الحالية على عملية إنتاج المعرفة وانتشارها ونوعيتها في العالم العربي ..

السياق المجتمعي:

يؤثر الدين بشكل أساسي على المجتمعات العربية وعلى توجهات وسلوك الأفراد والجماعات، وعلى الرغم من أن الدين الإسلامي يحض في الأصل على الاهتمام بالعالم المادي والعلوم، ويشجع على المعرفة في جميع نواحي الحياة : اللغة والأدب والفكر والعلوم الطبيعية والرياضية، إلاّ أن تطور العالم العربي المعاصر، خلف أثار عميقة في جملة الأوضاع المعرفية والعقلية والثقافية، وكان الدين أحد الوجوه الأساسية التي تأثرت بهذا التطور؛ فقد أفضى تحالف بعض أنظمة الحكم القهرية مع فئة من علماء الدين الإسلامي المحافظين إلى تأويلات للإسلام خادمة للحكم ولكن مناوئة للتنمية الإنسانية، خاصة ما يتصل بحرية الفكر والاجتهاد ومساءلة الناس للحاكم ومشاركة النساء في الحياة العامة .

في المقابل فإن التضييق على العمل السياسي في كثير من البلدان العربية قد دفع بتيارات ذات صبغة إسلامية العمل تحت الأرض، وألجأ بعض التيارات السياسية إلى التترس بالإسلام. وقد أدى الأمر في المآل إلى اندفاع بعض الجماعات السياسية المتشحة بالدين إلى التمسك بتأويلات متشددة، واعتماد العنف وسيلة للفعل السياسي، والنفخ في نيران العداء للقوى السياسية الأخرى في البلدان العربية و"للأغيار" بتهمة العداء للإسلام.

ويخلص التقرير إلى أنّ هذه التأويلات المتطرفة لا تقتصر على التعارض مع صحيح الدين، بل إنها تشيع الفرقة داخل المجتمعات العربية وتحيد بها بعيدا عن متطلبات مجتمع المعرفة.

ومن المكونات الثقافية الهامة في تناول قضية المعرفة: اللغة العربية، إذ أن اللغة محورية في منظومة الثقافة لارتباطها بجملة مكونات الثقافة من فكر وإبداع وتربية وإعلام وتراث وقيم ومعتقدات. لكن اللغة العربية تواجه اليوم، على أبواب مجتمع المعرفة والمستقبل تحديات قاسية وأزمة حقيقية: تنظيرا وتعليما ، ونحوا ، ومعجما واستخداما وتوثيقا وإبداعا ونقدا ، ويضاف إلى هذه المظاهر القضايا المرتبطة بتقانة المعلومات، ومعالجة اللغة آليا بواسطة الحاسوب .

يضاف إلى هذه المكونات والفواعل الثقافية موضوع الثقافة الشعبية العربية والتي تضم ما يعبر عن صوتين : صوت إتباعي يحض على إتباع ما هو معهود ، وصوت إبداعي يدعو إلى المساءلة ويحض على الاستزادة من المعرفة .

البنية الاقتصادية: من استنزاف الموارد إلى إنتاج المعرفة

من السمات الرئيسة لنمط الإنتاج السائد في البلدان العربية، ذات الأثر على اكتساب المعرفة : الاعتماد الكبير على استنزاف المواد الخام وعلى رأسها النفط، وهو ما يسمى بنمط اقتصاد الريع. ويزين هذا النمط استقدام الخبرة من الخارج، لسهولته وسرعة تبلور ريع اقتصادي على توظيفه، بما ينتهي إلى إضعاف الطلب المحلي على المعرفة ويهدر فرص إنتاجها محليا وتوظيفها بفعالية في النشاط الاقتصادي، كما أن جزءا رئيسا من النشاط الاقتصادي يتركز في النشاطات الأولية: الزراعة البدائية ، الصناعات الاستهلاكية .

كما يتأثر الطلب على المعرفة سلبا بصغر السوق وبضعف المنافسة في الاقتصاديات العربية، وغياب الشفافية والمساءلة، مما سمح بقدر من التلاحم وأحيانا التطابق بين النخب السياسية ونخب رجال الأعمال.

نسق الحوافز المجتمعي: تقديس القوة والثروة وضعف أخلاقيات المعرفة

كان لتوزيع السلطة، الذي توازى أحيانا مع توزيع الثروة في البلدان العربية، أثاره في أخلاق الأفراد والمجتمعات، وأدى إلى استشراء المنفعة وتقديم الخير الخاص على الخير العام، والفساد الاجتماعي والأخلاقي وغياب النزاهة والمسؤولية وأمراض أخرى كثيرة ترتبط بهذا التفاوت غير العادل أو غير المتكافيء، وكانت العدالة هي الضحية قبل غيرها.

كما أصابت الفورة النفطية عددا من القيم والحوافز الاجتماعية التي كان يمكن أن تؤازر وتدعم الإبداع واكتساب المعرفة ونشرها. كما ساهم القمع والتهميش في قتل الرغبة في الإنجاز والسعادة والانتماء. من هنا ساد شعور باللامبالاة والاكتئاب السياسي، ومن ثم ابتعاد المواطن عن المساهمة في عملية التغيير .

السياق السياسي : حبس الحرية يئد المعرفة

تبدو المعوقات السياسية لاكتساب المعرفة أشد وطأة من معوقات البنية الاجتماعية والاقتصادية؛ فالسلطة السياسية في العالم العربي تعمل على تدعيم النمط المعرفي الذي ينسجم مع توجهاتها وأهدافها ، وتحارب الأنماط المعرفية المعارضة ، وبشكل عدم الاستقرار السياسي واحتدام الصراع والتنافس على المناصب عائقا أساسيا أمام نمو المعرفة وتوطنها النهائي وترسخها في التربية العربية .

وقد أدت الظروف السياسية في العالم العربي إلى إخضاع مؤسسات البحث العلمي للاستراتيجيات السياسية والصراع على السلطة. وقدمت مقاييس الولاء في إدارة المؤسسات على مقاييس الكفاءة والمعرفة، وقيدت الحريات الفكرية والسياسية للباحثين؛ مما أسهم في تكبيل العقول وقتل حوافز الإبداع .

بيد أن التقييد الأخطر هو الذي تقوم به الأجهزة الأمنية متجاوزة المؤسسات الدستورية والقوانين، متذرعة بمقتضيات الأمن القومي، والذي تبقى معاييره غامضة.

وفي إطار السياق السياسي يطرح التقرير مسألة التحدي العالمي، ولعل المثال الأبرز في منظومة المعرفة هو إصرار الدول المصنعة - باعتبارها المنتج الرئيس للمعرفة على صعيد العالم - على احتكار المعرفة من خلال حقوق الملكية الفكرية.

رؤية استراتيجية لإقامة مجتمع المعرفة في البلدان العربية:

بعد أن يقدم معدو التقرير رؤيتهم وتفسيرهم للمشاكل والعوائق التي تؤثر سلبا على إنتاج المعرفة ونقلها في العالم العربي، وبالتالي تحول دون الوصول إلى مجتمع المعرفة. يضعون استراتيجية تجمع بين الشروط السياسية والاقتصادية والاجتماعية/ الثقافية الواجب العمل على الوصول إليها سعيا لإقامة مجتمع المعرفة في البلدان العربية، وهذه الشروط أو المقومات هي:

إطلاق حريات الرأي والتعبير والتنظيم، وضمانها بالحكم الصالح.

النشر الكامل للتعليم راقي النوعية، مع عناية خاصة لطرفي المتصل التعليمي وللتعليم المستمر.

توطين العلم وبناء القدرة الذاتية في البحث والتطوير التقاني في جميع النشاطات المجتمعية.

التحول الحثيث نحو نمط إنتاج المعرفة في البنية الاجتماعية والاقتصادية العربية.

تأسيس نموذج معرفي عربي عام أصيل منفتح مستنير، من خلال:

العودة إلى صحيح الدين وتخليصه من التوظيف المغرض، وتشجيع الاجتهاد وتكريمه.

النهوض باللغة العربية من خلال إطلاق نشاط بحثي ومعلوماتي جاد.

استحضار إمضاءات التراث المعرفي العربي، وإدماجها في لحمة النموذج المعرفي العربي.

إثراء التنوع الثقافي داخل الأمة ودعمه والاحتفاء به.

الانفتاح على الثقافات الإنسانية من خلال حفز التعريب والترجمة إلى اللغات الأخرى، و الاغتراف الذكي من الحضارات غير العربية.

ملاحظات ختامية:

يخلص تقرير التنمية : إلى أن المعرفة تكاد تكون الفريضة الغائبة في أمة العرب الآن ، والدين والثقافة والتاريخ والفوز في المستقبل تحض على المعرفة ، ولا يقوم دون المعرفة حائل إلا بنى وضعية من صنع البشر .. وخليق بالعرب اليوم أن يصلحوا هذه البنى حتى تتبوأ أمتهم المكانة التي تستحق في العالم إبان ألفية المعرفة .

لقد اختلفت أراء الباحثين والمفكرين العرب في تقييم هذا التقرير، وبلا شك فإن هناك جملة كبيرة من الملاحظات على هذا التقرير، أو على الأقل النقاط التي تحتاج إلى نقاش فيه ، لكن الأمر الذي ينبغي الإقرار به هنا هو : أن هذا التقرير يقدم إضاءات متميزة على كثير من الظواهر السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في العالم العربي ، والتي تعمل على إعاقة النهضة والتنمية وفي الوصول إلى مجتمع المعرفة ، وأبرز هذه العوامل على الإطلاق – كما يرى معدو التقرير – العوامل السياسية ؛ من استبداد السلطة وكبت الحريات وتجاهل حقوق الإنسان ، هذا الداء الخبيث الذي ما زال الجميع ينادي بضرورة استئصاله والقضاء عليه .

والملاحظة السابقة تضع مسؤولية جماعية أمام المثقف والعالم والمواطن والمسئول وهي مسؤولية العمل على تجاوز هذه الظروف والخروج من حالة البؤس العام التي تعيش فيها الشعوب العربية ، وهذا بدوره يقودنا إلى القول : أن هذا التقرير هو شهادة عملية في صالح النخب المثقفة والمواطنين والمطالبين بالتغيير في مواجهة أصحاب السلطة المستبدة و الطبقة الرأسمالية المتحالفة معها (الأمر الذي يشير إليه التقرير بوضوح) ، وباعتقادي الشخصي أن هذه أكبر علامة تسجل للتقرير ومعديه . والتي ستكون ورقة ضغط أخرى ضد الاستبداد والحكومات الفاسدة واجهزة الأمن والقمع التي تنهش من لحوم المواطنين والمعارضين في شتى أقطار العالم العربي.

بقي أن نقول : أنه إذا كان في التقرير كثير من العموميات، كما هو الحال في التوصيات، فإن المثقفين والمفكرين مدعوون إلى إقامة الندوات وحلقات النقاش التي تبحث هذه القضايا والتوصيات وتضع لها آليات عملية مقترحة، وتستثمرها في المطالبة بمساحة أوسع من الحريات العامة.